خاتمـــة

هذه جلسة قصيرة مع الدمشقي الذي عاش منذ ثمانية قرون تقريباً، عشنا معه من خلال كتابه الذي أسماه «الإشارة إلى محاسن التجارة..» حاولنا في هذه الجلسة أن نتفهم بعضاً مما قاله في هذا الكتاب صغير الحجم. والحقيقة التي أعتز بإبرازها أنني طوال هذه الجلسة كنت أشعر تماماً شعور طالب علم تجاه أستاذ عميق المعرفة واسع الإطلاع. وأحب أن أسجل هنا أن الدمشقي بحاجة إلى جلسات طوال من غيري من الباحثين، خاصة رجال الإدارة ورجال العلوم.

من خلال هذا الاستعراض السريع لكتاب الدمشقي أين نجد الدمشقي في موكب الاقتصاديين والإداريين؟

أولاً: على مستوى الاقتصاد الإسلامي

يعتبر الدمشقي من علماء الإسلام الذين لهم إسهامهم البارز في مجال الاقتصاد. ورغم اشتراك الدمشقي مع الكثير من علماء المسلمين في الكثير مما أثاره من قضايا اقتصادية إلا أنه تميز عن غيره في منهج كتابته. وكم هو مفيد للباحثين في الاقتصاد الإسلامي أن يتعرفوا على منهج الدمشقي. فقد زاوج بقوة بين الدراسة النظرية التحليلية وبين الدراسة المذهبية. أو بعبارة ربما تكون أوضح لقد زاوج بين النظرية الاقتصادية والسياسة الاقتصادية. لقد رأينا الدمشقي لا يركز في حديثه على الأحكام الشرعية الاقتصادية أو التناول الفقهي للمسائل الاقتصادية، كما كان شائعاً لدى من سبقه في تناول هذه المسائل من علماء المسلمين. وهذه ميزة أساسية من ميزات الدمشقي، كمفكر اقتصادي إسلامي. بل وجدناه يركز على التناول العلمي - بالمفهوم الضيق للعلم - لهذه

المسائل، فهو يصف ويفسر ويحلل السلوك الاقتصادي والظواهر الاقتصادية كما هي قائمة.

وقد قاده هذا المنهج إلى اكتشاف العديد من القوانين الاقتصادية.

ومع ذلك فقد عمل على ربط هذا الواقع بالقواعد الإسلامية. إذ بعد أن يصف الواقع ويفسره يقدم .في ضوء المبادئ الإسلامية .ما يراه من توجيه هذا الواقع وتصحيح مساره.

ثانياً: على مستوى الاقتصاد الوضعي «الغربي»

إذا أردنا أن نتعرف على مكانة شيخنا الدمشقي في مواجهة قادة الاقتصاد الوضعي فعلينا أن نضع نصب أعيننا جيداً الزمن الذي عاش فيه، لقد عاش في القرن الثاني عشر الميلادي. ذلك الزمن البعيد الذي كانت أوربا تعيشه في ظلام العصور الوسطي. وإذن فهو سابق لرواد الاقتصاد الوضعي من أمثال آدم سيمث وريكاردو وسميث ومالتس وغيرهم بأكثر من ستة قرون.

ومع هذا الفارق الزمني الممتد فقد تناول العديد من المفاهيم الاقتصادية التي تكوِّن وتؤسس النظرية الاقتصادية، ومن ذلك دراسته في النقود، وفي نظرية القيمة ومحدداتها، وفي ارتياد مجاهيلها والتي ظلت لغزاً محيراً أمام رواد الاقتصاد الوضعي، مثل لغز القيمة، ومثل تحديد القيمة عن طريق العرض والطلب. ومثل تناوله لظروف العرض ولظروف الطلب، ولتأثيرها في السعر. وما شاكلها من مفاهيم عان الفكر الاقتصادي الغربي طويلاً في التعرف عليها. وكثيراً ما وجدناه يطلق لفظ «القانون»[1]. والمعروف أن علم الاقتصاد مليء بالقوانين

١) ص٧٠.

الاقتصادية، ولا ننسى حديثه عن سلوك المستهلك وسلوك المنتج، مما يعد إرهاصاً مبكراً بنظرية توازن المستهلك وتوازن المنتج. وكذلك ضوابط الاستثمار ودراسات الجدوى وعلاقة الدخل بكل من الاستهلاك والادخار. وأسس نظرية التجارة الدولية.

ولم يقف الدمشقي عند هذا الحد بل أثار بفهم موضوعات اقتصادية لم تطرق بوضوح من الفكر الاقتصادي الغربي إلا خلال هذا القرن. ومن ذلك موضوع الفائض الاقتصادي على المستوى الفردي وعلى المستوى القومي، وضرورة إيجاده والمحافظة عليه وتنميته.

ثالثاً: على مستوى علم الإدارة

إن الإسهام المبدع الذي قدمه الدمشقي في تكوين نظرية الإدارة العلمية بفروعها المختلفة، خاصة منها ما يتعلق بإدارة المخازن وإدارة الرقابة على الجودة، وإدارة المشتريات، وإدارة المبيعات، يجعله يحتل عند المنصفين مكانة عالية بين مؤسسي علم الإدارة. بل هو الأب الأول لهم.

وأخيراً فإنني اعتقد أن المستشرق الألماني **Pitter** قد وقع على ما يجعله يعنى العناية الفائقة بكتاب الدمشقي فيقوم بترجمته إلى الألمانية.

أرجو ألا يكون موقفي هذا من الدمشقي يحمل إطراء أو تقويماً بأكثر مما يستحق، فما لهذا قصدت وأنا أعلم أن التقويم العلمي لا يعرف المجاملة. وينفر من الإفراط ومن التفريط. ويقيني أنه لو كان الدمشقي رجلاً أوروبياً قدَّم هذا الفكر في تلك الحقبة من الزمن لشيَّد له علماء الاقتصاد الغربيون اللاحقون تمثالاً من الماس.

كما أعلم أن الدمشقي في تناوله لما تناوله لم يقل فيه الكلمة الأخيرة، بل يكفيه أنه تعرف على أصولها وبداياتها الصحيحة. والعلوم والمعارف بنيان متراكم قائم على جهود مواكب العلماء جيلاً بعد جيل.

هذا هو شيخنا الدمشقي في إشارته!!

ترى ماذا لو عاد هذا الشيخ إلى إشارته هذه فوسعها وطولها وحوَّلها من مختصر إلى كتاب مطول، ماذا كنا سنجد فيه من جوانب الفكر الاقتصادي!! وكذلك من جوانب الفكر الإداري؟!!

وماذا لو تتابع الخطو من بعده على هذا المنهج العلمي تعميقاً وتطويراً؟؟ أما كنا وجدنا علم الاقتصاد قد نشأ مبكراً جداً، وفي بيئة مغايرة للبيئة التي نشأ فيها، بل وبطبيعة مغايرة لطبيعته الحالية في الكثير من الجوانب؟ وكذلك علم الإدارة؟.

رحم الله العلامة أبا جعفر الدمشقي